انطفاء

يوسف أبورية

(أ)

هي الّتي طلبتْ هذا اللّقاء..

والآن تجلس أمامه على الطاولة، في ذلك المحلّ الرّاقي في وسط البلد.

وكانت قد دسَّتْ له الورقةَ خلسةً حتّى لا يلحظها زملاءُ المكتب. طالعها، وفاجأه أنّها تحدّد موعداً للقاء.

إذن فهي قد فهمت ما يدور بداخله.

لم يكن من اليسير أن يفتح معها حواراً؛ فهي دون الأخريات يمكن الشكّ في سلوكها. كان يعرف أنّها معذّبة في حياتها الزّوجيّة، وكانت تختلي بالمديرة لتقصّ عليها عذاباتها، وهو يسترق السّمع إليها، ويراها حين تباغتها نوبة البكاء، ينتفض بدنها اللّدن، وتسيطر عليه ارتعاشة لا تسمح لها بالجلوس، فتقوم الزّميلات إليها، ويحطن بها، وتظلّ تنشج في بكاء عصبي، يسيل معه كحل عينيها في خيوط ممتدّة حتّى حواف شفتيها، فلا يستطيع المكوث في المكتب. يغادر إلى الخارج ويقف في الطرقة بانتظار الإذن، ليعود إلى مكتبه، وينظر إليها، فيراها وقد هدأت كثيراً، وتتملّى وجهه بحذر، وتصله رسالة عينيها الحزينة.

في مرّات قليلة استطاعا أن يختليا.

حين يتاح للزّملاء ترك المكتب إلى الصرّاف، أو حين يذهب إلى عمله مبكراً، فيجدها وحيدة، يدور بينهما حوار سريع لاهث، كأنّما يريدان أن يقولا كلّ شيء مرّة واحدة، قبل أن يقتحمهما الآخرون.

وقد يلقاها صدفة، أو عمداً في الممشى بين بنايات المكان، وربّما صادفها في الشّارع عند قدومها في الصّباح، يتبادلان كلمات سريعة خاطفة، ثمّ يدخلان من البوّابة، فيصمتان تماماً، ويبديان سحناً متحفّظة.

وفي هذه اللّقاءات القليلة حدّثته عن حياتها مع زوجها، وتيقّن بأنّها تحمل في طيّات نفسها روحاً قلقة متمرّدة، لا ترضى بالحياة البسيطة. فهي تظنّ أنّ حظّها التعس هو الّذي أوقعها في حبائل هذا الرّجل؛ فهو كالآخرين، لا يتميّز بشيء خاصّ، ولا يمتلك موهبة لافتة؛ وهي كانت تودّ لو ترتبط برجل مجنون، يصحبها إلى الأماكن الفخيمة، ويزور معها المدن البعيدة، ويحقّق لها طموح حياتها في الملبس والزّينة والسكن الرّاقي، ولكنّها أُجبرت على الحياة مع هذا الرّجل العادي، لا شيء في حياته غير العمل، وهو عاجز عن إثارة خيالها، وغير قادر على العيش في دنيا الأحلام الّتي لا تفارقها أبداً.

قالت في الورقة: «إنّك الرّجل الّذي حلمت به».

وهو سعد بهذا، فقد حان أن يغيّر نمطَ أيّامه الفارغة الّتي يقضيها ما بين المكتب والشقّة الّتي استأجرها في حي من تلك الأحياء النّاتئة في جسد المدينة الكبيرة.

وكان قد خبر تصرّفاتها، وعرف أيّ نوع من النّساء هي، وغذّى فيها تلك الأحلام الضّائعة، وجسّد لها شخصيّة الرّجل الّذي تفتقده. كانت عصيّة أوّل الأمر، لا تبدي له نظرات خاصّة، ولكنّه أصرّ على المواصلة؛ فكان يختلق الحوار مع الزّميلات، ويقصّ عليهنّ طرفاً من حياته خارج العمل، ليبدو أمامهنّ وكأنّه ذلك الصعلوك الّذي ينطلق في حياة حرّة، لا ضابط لها: فظهيرته يقضيها في التنقّل بين المقاهي، ويمضي اللّيل في الحانات، ولا يعود إلى شقّته كلّ ليلة إلاّ وقد انبلج الصّبح.

كلّ يوم يضيف حكاية مثيرة، ويرقبها، ويجدها تنصت بشغف، ويسمع طقطقة شفتيها، والتنهّدة الحارّة الّتي تنفثها من صدرها. فكأنّها تعلّق في جملة تحمل كلّ معاني الحسرة: أمّا نحن فننام بعد العشاء كالدّجاج.

ثمّ انتبه لالتفاتاتها المغايرة، صارت تقبل عليه ببشاشة محبّبة، وحين يرفع وجهه عن أوراقه تدوخه بنظراتها الملتاعة، ويبتسم لها، وتردّ بابتسامة لطيفة فيها دعوة للصّداقة والمودّة.

وتطوّرت الأمور، فقد انتاب كليهما الإحساس بأنّهما كائنان مختلفان، وأنّهما مضطران للعمل في مكان لا يليق بهما، ولا تنقصهما غير الأجنحة الّتي تسمح لهما بالتحليق عالياً في سموات لانهائيّة.

ولم يعد في مقدوره تحمّل تلك الشحنات العاطفيّة اللاّهبة، وهي لم تعد تتصرّف بتلقائيّة تجاهه، وشعرا بحصار الزّملاء؛ فقد لمّحوا أكثر من مرّة بما يشير لتقاربهما. وانقضى الزّمن الّذي أتاح له التّعامل

معها بحرّيّة، ولم يستطع أن يحسم الأمر، فهو يريد منها أن تخطو الخطوة الأولى.. وترك العلاقة تنضج وحدها.

وفي بعض الأحيان كان يستشعر أنّها تفتعل الاحتكاك به، فربّما دخل من باب المكتب، فيفاجأ بوجودها أمامه، فيصطدم بها، تطلق آهة الاندهاش، ويكون للجسدين شأن آخر. فكان التماس المحدود يضاعف شحنات القلق المخزونة. وأحسّ أنّ كليهما يخشى لحظة الانفجار، وأصرّ على مزيد من الانضباط. لابدّ وأن تخطو هي خطوتها الأولى وعليه أن يصبر.

وها هي الثّمرة قد نضجت، وسقطت وحدها من شجرتها، حتّى واتاها موسمها.

طوى الورقة بحرص بعد أن قرأها، وأخفاها في جيبه، ورأى عين الزّميلة المثبّتة عليه، ولم يحفل بها.

المكان محدّد، وكذا الزّمان.

(ب)

إذن هي الّتي اختارت..

وها هو يجلس معها على الطّاولة..

فاجأته بتسريحة شعرها الهائشة، وثوب السّهرة المبثوث على قماشه قطع من الترتر البرّاق، وأزعجه أنّها صحبت معها ولدها الصّغير الّذي اقترب منه بعد دخولهما من باب المحل. أشارت إليه، وقالت: عمو.. يا عمرو.

كان يريدها وحدها، وهي حين شعرت بأنّه لم يرغب في وجود الولد، برّرت ذلك بأنّها لم تستطع تركه في البيت وحده؛ فأبوه يذهب إلى العمل هو الآخر، ولا يعود قبل العاشرة، ولم تفكّر في تركه مع جدّته حتّى لا تعرّض نفسها للسّؤال عن سبب خروجها بهذه الملابس اللاّفتة.

تمسّح به الولد، ووضع يده الصّغيرة على فخذه، وقال: جيلاتي يا عمّو.

ـ حاضر.. سأطلب لك كلّ ما تريد.

ـ وبيبسي؟

ـ عمرو.. عيب.

وأرادت أن تشدّه إليها، غير أنّ الولد خلع يده منها ولجأ إليه. مال بوجهه على فخذه، فراح يسرّح يده في شعره النّاعم، فاستنام الولد لحركاته بوداعة.

وشعر بدبيب النّمل في جسده.

بعد أن وضع الجرسون الجيلاتي وزجاجات البيبسي، انشغل عمرو بكأسه، ظلّ واقفاً تجاه الطّاولة ينقل الملعقة من الكأس إلى فمه، ودخلا هما في حوارهما الخاصّ.

كانت لا تكفّ عن إطلاق التنهّدات وهي تبثّ لواعجها.

سألها عن زوجها، وحياتها معه، ما هي المشكلة بالضّبط؟

قالت إنّها أحبّته ـ في البداية ـ كما لم تحبّ امرأة رجلاً قطّ، وسرعان ما اكتشفت أنّه مجرّد حيوان، يأكل، ويقضي حاجته، ويمارس الجنس بروتينيّة مقرفة. وقالت إنّك لن تصدّقني حين أقول لك إنّه صار لا يقربني في الأيّام الأخيرة، وإذا حدث ذلك ـ وقليلاً ما يحدث ـ يفعله دون حماس.

ـ فاهم.. فاهم.

أدهشه أنّها تتكلّم بهذه الصّراحة وبقليل من التحفّظ والافتعال.

وسال الجيلاتي على ملابس عمرو، وسقطت منه قطع صغيرة على الأرض، فرفعت يدها وصفعته على وجهه: «تعال هنا لأطعمك».

ورفض الولد الذّهاب إليها، وتقلّب على الأرض، وهو يطلق العويل. فقام إليه ليرفعه على ساقه، وليهدّئ من روعه حتّى تنحسر تلك النّظرات المزعجة الّتي وجّهت إليهم من زبائن المحل، وراح يهدهد الولد، ويمسك له الكأس، وبدأ يطعمه بقطع يرفعها على حافة الملعقة. واستجاب له الولد وهدأ جسده تماماً.

وعاد الدّبيب من جديد..

وسقطت يد الولد على حين غفلة حتّى لامسته، فابتسم الصّغير، ووجّه كلامه إلى أمّه: عمّو..

وزحزحه إلى أطراف السّاقين، وانهمك في لملمة نفسه من أسفل، ولمح رعشة عينيها، وخشي أن تكون فهمت ما يعنيه الولد.

وأخرجت منديلاً ورقيّاً لتمسح به حول شفتيها. كانت ترفع المنديل أمام عينيها لتلحظ آثار «الرّوج» وتعضّ على أسنانها، وتخرج لسانها الورديّ لتضبط به دهان الشّفاه.

ومرّة أخرى استعادت حالتها الأولى.

وأذهله أنّها تحدّثت عنه، كيف لفت نظرها منذ قدومه للعمل..

وقالت إنّه الرّجل الّذي تودّ الارتباط به.

وقالت لا يهمّ أن يكون الارتباط بالزّواج، بل سيظلاّن على حالهما: تكتب إليه، ويكتب إليها، ويلتقيان لبعض الوقت في مثل هذه الأماكن، حبّ روحاني يعني، أم لا يعجبك هذا؟

وأخذ بالسّؤال، وأراد أن يشرح لها نظريّته في الحبّ، وأن يحادثها عن الكتاب الّذي طالعه وتقوم فكرته الأساسيّة على تفنيد مسألة الحبّ الرّوحاني هذه؛ فللحبّ دوماً أساس مادّي، هو الاتصال..

ـ أعرف.. أعرف.

وخشي موافقتها على ذلك، فهو لا يستطيع مصاحبتها إلى جحره الّذي يقيم فيه كفأر الأرض الشراقي.

أحسّ ببلل على سرواله أسفل مقعدة الولد، وقال متودّداً: فعلتها يا جميل.

انزعجت هي وقامت من مكانها، ومدّت يدها لتضربه، ولكنّه أمسك بها.

ـ أرجوك . .
ـ تعال لأغيّر لك السّروال.
ـ دعيني من فضلك أفعل ذلك.

ونزل بالولد عدّة درجات أسفل المحل حيث وجد المراحيض تقبع ساكنة في مكانها تحت الأرض، دخل به واحداً منها، وأنزل له السّروال، ثمّ قرّبه من العين، ولكنّه أبى، وقال له: خلاص عمّو . .

رؤى البحـر

ابراهيم عبد المجيد

ـ ١ ـ

تراجع الماء فارتفعت الرّمال، وملأت الفضاءَ آلافُ الصّخور المبعثرة: صغيرةً عند الشّاطئ، كبيرة كلّما اقتربت من خطّ الأفق، تحوط بها وتنبتُ من قلبها نباتاتٌ غريبة، وتزحف بينها وحولها الأسماك عديدة الألوان والأشكال مصابة بكهرباء شيطانيّة. . . في الوقت الذي انتصبت فيه في أكثر من موضع، أعمدةٌ رومانيّة عليها نقوش ماحلة حروفُها. كما ظهرتْ من بعيد بقايا سفن قديمة سوداء أخشابها زلقة نمت فوقها الطّحالبُ المائيّة.

لم يقف أيُّ شخص على الشّاطئ صارخاً. لم تنصب الدّهشة خيمتها على وجه أحد. هو وحده الذي رأى!

المصطافون يجلسون تحت الشّماسي. أمامهم، تحت أرجلهم في الغالب، يحفر الأطفالُ حفراً صغيرة، يملأونها بالماء الذي ينقلونه إليها بالدّلاء البلاستيكيّة. يدخل الأطفال إلى الماء فتجري خلفهم عيونُ الآباء والأمّهات، والبحر هادئ، ينسطح ماؤه باتّساع مريح للنّظر، ويتحرّك حركةً مخمليّة عذبة، وفيه توزّعَ الشّبابُ والفتياتُ والصّبية جماعات صغيرةً تلعب الكرة بسلاسة، أو تتسابق في السّباحة وطول النّفس.

فوق الجميع فضاءٌ أبيض واسع، تصعد فيه الشّمس قويّة إلى منتصف السّماء، فتزيد من اتّساع الكون وبهائه. والمرأة الشّابة الجميلة التي ترتدي الفستانَ اللّيمونيَّ الخفيف الفضفاض الكثير الدّانتيلا عند الذيل وحول الصّدر الواسع والكمّين القصيرين الواسعين، وتسرع حافيةً يسبقها ويحيط بها الأطفال، قد ابتعدت الآن مع امتداد الشّاطئ ناحيةَ اليسار. ولقد قال لزوجته حين رأى المرأة تمرّ من أمامه:

ـ لايزال الوقت مبكراً لضياع الأطفال.

لكن زوجته أخرجتْ من حقيبتها، المعلّقة على جانب «الشّيزلونج» التي تجلس فوقه، نظّارتَها السّوداء.

الشّمس ليست أمامهما. الشّمسية الكبيرة فوقهما والظلّ يحيط بهما. يعرف أنّها تغالب الدّمع. أحسّ بحاجة إلى النّهوض من مكانه قليلاً.

في اللّيلة الأولىٰ لوصولهما منذ أسبوع، عضّه الجوع في وقت متأخّر. كان قد انشغل طويلاً مع زوجته في تنظيف الشّقة المغلقة طول العام. نامت هي حين انتصف اللّيل، وظلّ هو كعادته لا يستطيع النّوم حين يغيّر مكانه إلاّ بعد مضي ليلة، وأحياناً ليلتين، في المكان الجديد.

لابدّ أنّ المخبز الإفرنجي في الشّارع القريب لايزال موجوداً؛ قال لنفسه تلك اللّيلة، وغادر الشّقة بهدوء. لم يكن أحد في الشّارع. وجد المخبز مغلقاً، فمشى إلى مخبزٍ آخر. لم يقابله أحدٌ هناك أيضاً، على غير العادة في ليالي الصّيف. وعلى غير العادة أيضاً هبّت نسمةٌ باردة للحظات. لماذا حين يشيع البرد يصبح الكون عميقاً؟ وسمع ضحكة صاخبة، تأتي من إحدى الشّقق العالية، لصوت نسائيّ بديع، وسمع صرخة تمرّ من حوله، ثمّ سمع هدير أقدام تجري.

رآه خارجاً من زقاق مظلم، وخلفه رجل آخر يحمل سكّيناً طويلة تلمع في يده، ثمّ سمع صرخة مكتومة، ولاحظ أنّ الشّارع الكبير لا تضيء كلُّ مصابيحه. انهار الأوّل فوق الأرض، واندفع الآخرُ إلى زقاق جانبيّ. استدار هو عائداً بلا خبز. تمدّد بجوار زوجته مرهقاً ونام على غير عادته في مكان جديد. . .

ـ ٢ ـ

قبل أن ينهض من جوار زوجته تذكّر أنّه قرأ يوماً عن جزيرة في أحد المحيطات تظهر ستّةَ أشهر ثمّ تغيب ستّة أشهر بكلّ ما فيها، ولا تلبث أن تعود إلى الظّهور.

لقد حاول، ولا يدري لماذا، أكثر من مرّة اليوم، أن يسترق السّمعَ لحديث المرأتين اللّتين تجلسان تحت الشّمسيّة المجاورة، ولم يفلح في التقاط كلمة ممّا تقولان. فهما تتحدّثان بسرعة وحماس وصوت خفيض، وتلك موهبة لم يصادفها من قبل. اكتفى بالفرجة، خلسة، على الرّاحة التي تنطلق من وجهيهما حين تضحكان بين لحظة وأخرى، ومتابعة نظراتهما إلى الماء، حيث ثلاث فتيات جميلات يلعبن بالكرة، ووسطهن يتحرّك في حيرة صبيٌّ يحاول التقاط الكرة التي يتقاذفنها بينهن فيضحكن من حيرته وعذابه.

الفتيات المراهقات يرتدين المايوهات، وتبدو أجسادهن اللاّمعة